(كتاب الكون يشهد بوحدانية الخالق)

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ونستهديه وَنَسْتَغْفِرُهُ ونتوب إليه ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَمُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ القائل : (مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ القائل : (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى) قالُوا يَارَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى ؟ قالَ : (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، أَمَّا بَعْدُ فيقول الله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

• عباد الله! للإسلام كتابان : كتاب سماوي وهو القرآن الكريم يبرز لنا الحقيقة كأننا نراها ونلمسها ، ويدعونا ربنا إلي تدبره ويبين لنا بأنه سيظل متجدد العطاء يظهر لكل جيل بسر من أسرار العلوم وحقيقة من حقائق الإعجاز قال تعالي : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) أما الكتاب الثاني فهو كتاب الكون الذي أمرنا الله بالنظر فيه ليس مجرد النظر بالعين بل ليأخذ الإنسان العبرة منها فقال تعالى : (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) ووعدنا أيضا بإظهار أسراره عاما بعد عام بالتدريج قال تعالي : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا...) فقوله تعالي : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) آية من الكتاب الأول تدعونا للتدبر في بعض آيات الكتاب الثاني مثال ذلك هذه الأرض التي نعيش عليها ماهي إلا نقطة من مساحة كون واسع يتسع شيئا فشيئا منذ خلقه الله إلى ماشاء الله تصديقا لقول الله تعالى : (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) ويأتى العلم الحديث ليؤكد هذه الحقيقة الكونية بولادة مجرّات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

• فالكون يعنى الفضاء الذى يتواجد فيه كل شيء من المخلوقات كالنجوم والمجرات والكائنات الحية وهو مجال بحث العلماء أما السماوات فمستحيل الوصول إليها ومع ذلك فهذا الكون والسماوات السبع ماهو إلا نقطة بجانب كلمات الله! وقد ضرب الله لنا مثلا في كتابه يُبين لنا فيه بأن كلمات الله لايمكن إحصاؤها قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وعن أبي ذر قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا وحده فجلست إليه فقلت : يا رسول الله ! أي آية أنزلت عليك أفضل قال : (آية الكرسي) ثم قال : (أتدري ما الكرسي؟) فقلت : لا... قال : (ما السماوات والأرض وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ألقاها مُلْقٍ في أرض فلاة ، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقاها مُلْقٍ في أرض فلاة ، وما العرش في الماء إلا كحلقة ألقاها مُلْقٍ في أرض فلاة ، وما الماء في الريح إلا كحلقة ألقاها مُلْقٍ في أرض فلاة ، وما جميع ذلك في قبضة الله إلا كالحبة وأصغر من الحبة في كف أحدكم وذلك قوله تعالى :
(وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

• ومع أن الكون في توسع مستمر وفي تمدّد إلا أن الأرض تنكمش على ذاتها وتنقص من كافة أطرافها ويقول العلماء : إن حجم الأرض كان في بداية خلقها ضعف حجم الأرض الحالية 100 مرة فمنذ اللحظة الأولي من خلق الأرض وهي في نقصان وانكماش من كافة أطرافها ومنذ خمسة عشر قرنا مضت والله يخاطب علماء هذا العصر الذين ينكرون الإسلام فيقول : (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَمُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) وبسبب هذا النقصان حدثت الزلازل والأعاصير والعواصف ليعلم الإنسان بأن لهذا الكون إلها يدبر أمره ويُحصي كل شيء فيه .

• وهذه الأرض كانت جزءا ممَّا فى السماء ثم انفصلت عنها وهذه الحقيقة الكونية قد أثبتها القرآن الكريم بين آياته منذ خمسة عشر قرنا من الزمان قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ) ومن العجيب أن النداء موجه لغير المسلمين وهم الذين سيكتشفون هذه الحقيقة ! ولم يكن انفصال الأرض عما فى السماء عشوائيا إنما كان انفصالا مُحْكمًا بحيث وُضع كل كوكب فى مكانه الصحيح بوزنه الصحيح وسرعته الصحيحة بحيث لو ابتعدت الأرض عن مدارها لخرجت من جاذبية الشمس وضاعت في صفحة الكون فتهلك ويهلك كل من عليها ، ولو اقتربت من الشمس لدخلت فى قلب الشمس حيث الحرارة 15 مليون درجة مئوية فتنصهر وينصهر كل من عليها ، وبواسطة هذا الميزان الدقيق إستقر النظام وامتنع الصدام ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الميزان فى سورة الرحمن قال تعالى : (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) .

• لقد تحدث القرآن الكريم عن وحدانية الله منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان وأقام الحجة على هؤلاء الذين أشركوا مع الله غيره فقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وتحدث القرآن الكريم كذلك عن حقائق علمية فى الإنسان وكافة المخلوقات وبمرور الزمان اكتشفها المنكرون ولم يؤمنوا فليس لهم عذر أمام الله يوم القيامة قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ولم يقف عطاء القرآن الكريم عند هذا الزمن فقد تتكشف حقائق أخرى للذين سيأتون من بعدنا إن شاء الله ليظل القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية كلها .

• فهذا الكون كله بسمائه وأرضه جعله الله في خدمتك أيها الإنسان ولم لا ؟ ألم يقل الله تعالي : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) ولايظن ظالم بأن الله غافل عما يفعل! قال تعالي : (وَلاَتَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) .

• فالذى سخر لك الكون وجعله فى خدمتك من حقه أن يُعبد! فلقد خلقك الله أيها الإنسان لعبادته وحده قال تعالى : (وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ومن حقه أن تؤثر حبه علي كل محبوب قال تعالى : (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) فإذا شغلتك الحياة الدنيا فتركت طاعة الله وذكره فإن الله يسلط الله عليك بعض آياته كالزلازل والأعاصير وغيرها فتسلب منك بعض النعم فتلجأ إليه بالتوبة وترجع إليه بالإستغفار كما قال تعالى : (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

فالله مع عباده أينما كانوا ! وعن هذه المعية سيكون اللقاء القادم إن شاء الله

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :
(كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)